الفهم الفلسفي
للثورة على الأخلاق
للأستاذ عبد العزيز عزت

سيدى الأستاذ الزيات

قرأنا بإعجاب فى الرسالة الغراء ما كتبتموه ، وما سطره أساتذة الأدب العربى فى الثورة على الأخلاق ، فأكبرنا فيكم نزعتكم إلى تأييد الفضيلة بهذا الأسلوب . وقد لاحظت بجوار ذلك غياباً نسبياً للفهم الفلسفى فى ذلك الحوار الأدبى ، مع أن الموضوع يمت إلى صميم الفلسفة بصلة وصلات . لهذا دعانى الواجب الفلسفى أن أحرر هذه الكلمة لعلها تلقى بعض الضوء من هذه الناحية على هذا الموضوع :

فهم بعض الناس فى مصر الثورة أنها النزاع بين وجهتى نظر متناقضتين ؛ فهناك أنصار القديم ، وهناك المجددون ؛ وهناك رجال الدين ، وهناك « المستغربون » ؛ وهناك أصحاب الفضيلة ، وهناك « المتردلون » . نزعة « الثنية » هذه Dualisme

---

وأرقى حكومات العصور الوسطى ؛ وكانت الحضارة الأندلسية فى سائر نواحى الحياة العامة والخاصة مضرب الأمثال فى الروعة والبهاء ؛ وكانت نبراسا تمتد أضواؤه إلى أقاصى أوربا ؛ وكان للزهراء عاصمة الناصر وبلاطه فى الأمم الشمالية شهرة سحرية ، حتى أن الراهبة السكسونية هروسويتا تغنت بجمالها وروعتهما فى قصائدها اللاتينية وأسمتهما « زينة الدنيا » (١)

والخلاصة أن عظمة الأندلس يمكن أن تقرأ فى هذه الصفحات المطوية من تاريخ العلائق الدبلوماسية بينها وبين الأمم الأوربية أكثر مما تقرأ فى تاريخها الخاص : ففى هذه الصفحات نجد صوراً كثيرة مؤثرة من ذلك الاجلال الذي كانت تفرضه الأندلس بإبان عظمتها على أمم الغرب والشمال

محمد عبد الله عنان

(١) دوزى — (الطبعة الأولى) ج ٣ ص ٩٠ — ٩١

فى تصور الشىء وضده ، هي نزعة « حربية » لا تليق بطبيعة التفكير جرتها علينا من بعيد الحضارة الفارسية التى يسودها مذهب زرادشت Zeroastre فى كتابه الأفستا Avesta الذى يقول بتنازع قوة الشر « أهرمن » وقوه الخير « أهورا » . وكذلك جرتها علينا — فيما أرجح — من قريب مبادىء الثورة الفرنسية فى تصور معنى الحرية والاستقلال ؛ فهناك ابن الوطن Le citoyen من ناحية ، وهناك الملك من ناحية أخرى ؛ ذلك لأن التفكير فى ذاته وسيلة سلمية هادئة لخلق « التماسك » فى عقلية الفرد ، وخلق التماسك فى عقلية المجتمع ؛ وهذا التماسك هو الانتقال من حالة نوعية إلى حالة من نفس النوع يجوز لها التخصيص . فكل ثورة هى نهاية ظاهرة لحالة تطورها دى سبقته ، وتضمنت هذه الثورة ؛ فهى إذاً حاضر لماضٍ سبق قد مهد لها ، وهى حاضر كذلك لمستقبل يأتى ، تمهد هى له الثورة فى نظر الفيلسوف الألمانى شيلنج Schelling لا يمكن أن تنفصل عن التطور وعناصره الثلاثة : الماضى ، والحاضر ، والمستقبل . (التطور هنا لا يقصد به نظرية داروين وسبنسر التى أثبت خطأها أستاذنا الفيلسوف لالاند Lalande فى كتابه : « خداع التطور » Les illusions évolutionistes ؛ وإنما التطور الذى نزل من فلسفة أفلاطون وقالت به المدرسة الألمانية الحديثة وخاصة هيجل Hegel وشيلنج Schlling وهو التطور المنطق لمظاهر التاريخ عامة) . فالثورة بهذا الفهم هى عنصر أكيد للسلام والتقدم

ولنأخذ مثلاً ثورة أفلاطون فى العهد القديم . هذه الثورة كما يحدثنا الفيلسوف الألمانى زللر Zeller فى كتابه « فلسفة أهل اليونان » الجزء الأول — جمعت بين الفلسفة الطبيعية التى سادت التفكير اليونانى إلى ماقبل سقراط ، وجمعت الفلسفة المنطقية التى وجدت فى عصره عند السوفسطائيين ، وكذلك الفلسفة الأخلاقية التى قال بها سقراط ، ففيها يلتئم عنصر الماضى وعنصر الحاضر وكذلك عنصر المستقبل ، لأن فلسفة أفلاطون ضمنت الحياة للفلسفات المنطقية والأخلاقية من بعده ، الأولى فى تلميذه أرسطو والثانية فى زعيم الرواقيين كريزيب Chrysippe ومن أخذ عن هذين الفيلسوفين إبان القرون الوسطى من عرب ، ورومان ،

ومسيحيين . وهكذا بعد أن كانت الفلسفة المنطقية من قبل أفلاطون سبيلاً للشعوذة والسفسطة والثرثرة ، أصبحت فلسفة محترمة تبغى إقامة العلم والبحث عن الحقيقة المجردة . كذلك بعد أن كانت الفلسفة الأخلاقية من قبله وسيلة لإخضاع الفرد فى المجتمع اليونانى أو الدولة الحاكمة ، أضحت سبيلاً لتحريره وتقوية إرادته

ومثل آخر فى العهد الحديث : ثورة كانت Kant الألمانى فهى قد جمعت بين تيار الماضى — بالنسبة إليه — وهو تيار فلسفة ديكارت Descartes حينما يتكلم عن ملكات العقل ، وتيار الحاضر — بالنسبة إليه — وهو تيار الفلسفة الإنجليزية الممثل فى فلسفة دافيد هيوم David Hume ، لأن (كانت) نفسه يقول إن هيوم «أيقظه من سباته الفكرى » . ونجد أثر هذا ظاهراً عند ما يتكلم كانت فى أثر الحواس فى نظرية المعرفة ؛ أما عنصر المستقبل فهو أن كانت Kant كفل الحياة من بعده لفلسفات تنطق تارة باسم العلم مثل فلسفات أوجست كنت ، وكورنوه Cournot ، وفلسفات تنطق باسم المنطق والإلهيات مثل فلسفة لاشليه Lachelier ، وفلسفة بوترو Boutraux (اقرأ كتاب أستاذنا العلامة الكبير لاسباكس Lasbax أستاذ الفلسفة بجامعة كليرمون ، ورئيس المجلة الدولية للعلوم الاجتماعية ، والسكرتير السابق للوزير بريان Brian ، وعنوانه : « المنطق وتطور العالم »

وعليه فالثورة فى التفكير هى عنصر للسلام أى التوفيق بين الماضى والحاضر الفكرى ، ومظهر للتقدم ، أى يجب أن تكفل خلق تيارات جديدة للفكر فى المستقبل .

أما الآن فلنتحدث عن الثورة « الأخلاقية » . الثورة فى مجال الأخلاق تتضمن الإقرار بوجود هذا المجال ، وتميزه فى نفس الوقت عن المجالات الأخرى كمجال النفس والاجتماع والمنطق ، والاقرار كذلك بأن له طبيعة خاصة وأصولا للتفكير فيه ، وإلا أصبح البحث عبثاً ، والجدال رغاء ، وقلبت الأوضاع ، وأنكر التاريخ ، وجحدت المجهودات القائمة للفلاسفة . فنحن إذاً لا نوجه كلامنا إلى أصحاب الرذيلة الذين يخسوا الفضائل حقها . ولكنا نوجهه إلى الأساتذة أصحاب الفضيلة فنقول :

الثورة فى مجال الأخلاق لا تبنى على إنكار الفضائل ، وتجاهل أمر الثورات الأخلاقية فى تطور التفكير البشرى ؛ ولكن على علاقة الفضيلة بالرذيلة أولا ، وعلى استعراض التصور النوعي للفضيلة فى الثورات الأخلاقية

(١) أما عن تحديد علاقة الفضيلة بالرذيلة فلا يمكن البحث عنها خارج فلسفة الرواقيين ، لأنه أعظم مبدأ أخلاق وجد إلى الآن فى تطور التفكير الإنسانى ، وذلك لأنه قضى على مبادئ الأخلاق التى تقدمته بتعاليمه السامية . فبينما سقراط يجتهد أن يتخذ من الأخلاق سبيلا لتقييد حرية الفرد وإخضاعه للدولة الحاكمة فى المجتمع اليونانى ، نرى أفلاطون يفترض السوء فى طبيعة الإنسان ويجتهد بعد ذلك أن يرفعه إلى قداسة عالم المثل . كذلك أرسطو فهو يميز وينوع بين خلق الله فيقر الرق والاستعباد ، ويضع أخلاقه للسادة من الناس ، والأرستقراطية التى قضت مباشرة على مبادئه وأضحى فكره ميتاً بعد حروب الاسكندر الأكبر ، لأن المجتمع اليونانى فى ذلك الزمان أصبح فى حاجة ماسة لمن يخاطبه بلغة قليلة التجريد — أقرب إلى الواقع منها إلى الخيال ، يتحقق خلالها ذلك الفهم الواسع الذى أدركه اليونانيون باحتكاكهم بعد تلك الحروب بسائر الأمم الأخرى ، لهذا لاقت تعاليم الرواقيين نجاحاً عظيما وخاصة تعاليم كريزيب Chrysippe (اقرأ كتاب أستاذنا أميل برهييه Emile Bréhier وعنوانه كريزيب فى مجموعة ألكان Alcan لكبار الفلاسفة) لأنها ألغت الرق ، وجعلت الناس سواسية كأسنان المشط أمام القانون الأخلاق ، وافترضت الخير فى طبيعة الإنسان . وأهمية هذا المذهب لا تقف عند هذا الحد لأنه ساد بعد ذلك كل العالم الرومانى ، وعالم القرون الوسطى فى أوروبا خلال آباء الكنيسة . والأهم من ذلك أخيراً أن زعماء الفكر الحديث عندما كتبوا فى الأخلاق تأثروا بالرواقيين ، فمثلا ديكارت فى خطاباته مع البرنسيس البزابث ، وسبينوزا Spinoza فى كتاب « الأخلاق » ، وكانت Kant فى كتابه عن الأخلاق

فالرواقيون آباء الأخلاق لم ينكروا فى ثورتهم الفضائل ولم يبخسوا كذلك الرذائل حقها وما لها من أهمية فى الحياة ؛ غير

أنه يستحيل فى نظرهم فصل الاثنين عن بعضهما ، لأن الإنسان مركب من روح وجسم — وهى البداهة كلها — فله شهوات تدعو إلى الرذيلة ، وله غايات روحية سامية يريد تحقيقها ؛ غير أن الشهوات والميل إلى الرذيلة ليست بطبيعية فى الإنسان ، فالإنسان كأساس خيِّر بطبعه ، ولكن الحياة الخارجية المادية ومغرياتها هى التى تفسد عليه داخليته ونفسه الطاهرة . ولما كان أغلب الناس لا يمكنهم التضحية بمغريات الحياة الخارجية ، اضطر الرواقيون ألا يتجاهلوا أمر الرذيلة وأثرها فى التخلق فحسبوا لها حساباً بل جعلوا منها ضرورة لازمة للفضيلة ؛ ويقدمون لذلك ثلاث حجج ، (يجدها القارئ فى كتاب أستاذنا برهييه Bréhier والأستاذ بيفان Bevan)

أولا — حجة بالمقارنة ؛ فالرذيلة تابعة للفضيلة وشرط أساسى لها ؛ ويضربون لذلك مثلا جمال رأس الانسان الذى يتضمن فى نفس الوقت نوعاً من الضعف هو رقة عظامه وتعرضه فى أي لحظة للأخطار الطارئة ، فاذن ليس هناك جمال خالص من ضعف أو قبح يشوبه ، كذلك (ut...sic) ليس هناك فضيلة خالصة ولا بد للرذيلة أن تلازمها فهى ضرورية لها

ثانياً — حجة منطقية : تتلخص فى أن النقيضين متضامنان ؛ فالخير يتضمن الشر فى تصوره ، والحسن يتضمن القبيح فى إدراكه ، والفضيلة تتضمن الرذيلة وهلم جرًّا ...

ثالثاً — حجة أخلاقية : يقول الرواقيون : الرذيلة ليست من طبيعة مغايرة للفضيلة ، فكلاهما من نوع واحد . وليست الرذيلة هى حرباً على الفضيلة ، وإنما هى فضيلة ضالة ، والعقل فى تصورها وفعلها خاطىء ، ومهمة الأخلاق هى العودة بما ضل إلى الطبيعة الخيرة الأولى

هذا الفهم للعلاقة بين الفضيلة والرذيلة اضطر الرواقيين إلى تصوير نوعين من الأخلاق : أخلاق لا يصح أن نسميها « خارجية » نجدها فى كتاب « الواجبات » لشيشرون ، وهى تختص بمغريات الحياة الجارية وتنبنى على ما يجب فعله وما لا يجب أن يفعله الانسان فى يومه ، والتحقير من أهمية الماديات لتغير قيمتها بتغير الأشخاص والأزمان والأصقاع ، فهى أشياء عارضة ، وينبنى الزهد فيها ، والاعراض عنها ، فهى أخلاق تهتم بتخفيف وطأة الرذيلة

وأخلاق تسميها « داخلية » تبنى على رياضة الارادة ، أساسها ضبط النفس وغرضها الوصول إلى الخير المطلق ، ونجدها فى كتاب شيشرون المسمى De finibus ، وهي مايصح تسميتها كذلك بلغة العلم الحديث « أخلاق نظرية » ترمى إلى خلق الانسجام بين إرادة الوجود فى الفرد ، وإرادة الوجود فى العالم ، وإرادة الوجود فى المجتمع

كذلك الاستعراض النوعى للفضائل فى ثورات الأخلاق ، يدل دلالة واضحة على أن هذه الثورات لم تكن حرباً على الفضيلة ولم تكن للحط من قيمة الانسان إلى قدر هو أرفع منه ؛ وإنما كانت رداً وسلاماً عليها ، ترسم سبل الوصول إليها وامكان تحقيقها : فالثورة اليونانية الأخلاقية كما يذكر الفيلسوف بوتروه فى كتابه (مسائل فى الأخلاق والتربية) كانت ترمى إلى رفع الانسان إلى القداسة العقلية بحيث يصبح العالم بيتاً للانسان والآلهة (أنظر كذلك شيشرون «طبيعة الآلهة») . ويتحقق حلم الرواقيين فى خلق مدينة العقلاء فيسود السلام على الانسانية ، باحسان كل إنسان إلى أخيه فلا يبقى هناك فضل « ليونانى » على أجنبى

والثورة الدينية فى الأخلاق : إبان القرون الوسطى ويمثلها فيلون الاسكندرى فى اليهودية ، والغزالى فى الإسلام ، والقديس أوغسطين فى المسيحية ، تتلخص كلها فى تلك النزعة القديمة الشرقية التى اختص بها الجنس السامى وهى فكرة الخطيئة الأولى وما تتطلبه من التحلى بالفضائل كوسيلة لإنقاذ خلق الله من وصمتهم والعود بهم إلى جنات الخلد والنعيم (أنظر كتاب مُنْك Munk « فى الفلسفة العربية واليهودية » ، وكذلك كتاب أستاذنا العلامة جلسن Gilson بالكليج دي فرانس وعنوانه : «المسيحية والفلسفة »

ثم جاءت بعد ذلك الثورة الحديثة فى الأخلاق تقيم الفضائل وتناصرها ولكنها تفهمها بشكل آخر جديد ، فبينما نجد القداسة العقلية عند اليونان ، والقداسة الربانية عند اليهود والمسلمين والنصارى ، نجد القداسة العملية النفعية عند الانجليز فى شخص هبز Hobbs ومدرسة بنتام Bentham ، وميل mill ، وسبنسر Spencer (أنظر جيو Guyau الاخلاق عند الانجليز وأيضاً سبنسر التطور والأخلاق

أصبحت الأخلاق عندهم تهتم بالحياة الجارية وتتأثر بالفهم الرياضى فأضحت « حساباً للذات » من وجهات الكم والكيف ، والبقاء ، والزوال ؛ وأصبح الفرد وأنانيته محوراً للأخلاق . ظهرت ثورة أخلاقية جديدة فى ألمانيا هى ثورة كانت Kant تذكرنا بآراء الرواقيين فى العهد القديم لأنها ترتكز على فكرة الواجب L'idée du devoir المجرد عن الغايات النفعيـة والأغراض العارضة ، وأن الإنسان فى تخلقه يجب أن ينظر إلى ثلاثة أفكار : أولاً : أن يكون التخلق واحداً لكل الناس . ثانياً : أن يحترم الإنسانية فى شخصه . ثالثاً : أن يتخلق وأن يملى على نفسه تخلقه دون أن يخضع فى ذلك إلى مؤثر ما . لهذا كانت نهاية مبدئه الإرادة الحرة (أنظر دلبوس Delbos فلسفة كانت Kant

ونحن بعد هذا لا نريد أن نعدد الأمثلة أكثر من ذلك لنثبت أن للأخلاق والثورة عليها أو فيها طبائع وأصولا ومبادئ لا تبرر مطلقاً ماذهب إليه الثائرون . لهذا غضبت النفوس الكريمة وناصرت الفضائل التى هى السبيل الوحيد لوجود الضرر كمنكر ، لأن ديكارت لا يفصل التخلق عن المعرفة والسبيل الوحيد كذلك لوجود الفرد اجتماعياً ، لأن دوركيم لا يؤمن بقيمة الفرد إلا إذا آمنت الناس من حوله بما ينطق ويفكر . فما كتبه الأستاذ الزيات ، وعزام ، والخولى هو لسان المجتمع فى هذا الموضوع المعبر الصادق عن المشاعر الخفية التى تكنها نفوس المصريين أجمعين من حولهم ، فليكفر إذاً هؤلاء الثائرون — اعتباطاً — عن آرائهم ، فالرجوع إلى الحق فضيلة

عبد العزيز عزت
خريج جامعات القاهرة وباريس ، وكليرمون
عضو بعثة الجامعة المصرية لدكتوراه الدولة

الرســـالة
فى سنتها السادسة

على الرغم من ارتفاع أثمان الورق هذا الارتفاع الفاحش ، وبالرغم من تقدم الرسالة هذا التقدم المطرد ، وبالرغم مما سنبذله فى تحسينها من الجهد فى عامها الجديد ، سيبقى اشتراكها كما هو : ستون قرشاً فى الداخل ، وجنيه مصرى فى الخارج ، وتقدم إلى من يدفعه فى أثناء شهر يناير المقبل مجلة الرواية مجاناً

الروايـــة

وليست الرواية هدية ضئيلة القدر ، فإنها تصدر جميلة الطبع والوضع فى سبعين صفحة ، وهى المجلة الوحيدة التى تقرأ فيها القصة العربية الفنية مكتوبة بأسلوب بليغ مشرق ، أو القصة الأوربية الرائعة مترجمة بلسان أمين صادق . وحسبك دليلاً على قوتها وقيمتها أن مجموعة سنتها المنصرمة تشتمل على ٣٤ أقصوصة موضوعة ، و ١١٦ أقصوصة منقولة ، وثلاث مسرحيات ، وعلى النص الكامل لكتاب اعترافات فتى العصر لألفريد دى موسيه ، وملحمة الأوذيسة لهوميروس ، وكتاب يوميات نائب فى الأرياف لتوفيق الحكيم . أما مجموعة السنة القادمة فستكون أروع وأجمع وألذ . واشتراكها وحدها ثلاثون قرشاً فى مصر ، وخمسون فى الخارج

اشتراكات الطلبة والمعلمين الالزاميين

يشترك الطلبة والمعلمون الالزاميون فى الرسالة وحدها بأربعين قرشاً ، وفى الرواية وحدها بعشرين قرشاً ، وفيهما معاً بخمسة وخمسين قرشاً ويضاف إلى ذلك خمسة وثلاثون قرشاً فرق البريد لاشتراكات الخارج . ويجوز أن يقسط هذا المبلغ أقساطاً تبتدىء فى يناير وتنتهى فى شهر مايو من سنة ١٩٣٨

الاشتراك فى الرسالة : يقوى عقلك ، ويثمى ثقافتك ، ويطلعك على تطور الفكر العالمى الجديد

والاشتراك فى الرواية : يربى ذوقك ، ويرهف شعورك ، ويمتعك بروائع الفن القصصى الحديث